

العالمية الثانية، وحلول النفوذ الأمريكي محل النفوذ البريطاني، وقيام حزب أوزيري لوحدة النهر الكبير، والانقسام بين اللعازرة والأوازرة، وتوحيد حزبي الأمة والوطني بحزب الشعب، وأحادية الاقتصاد (القطن والسكر)، وتأميم قناة السويس، والحملة الغربية، وذلك الموجيك الأحمر مرعي السنجاري الذي يحمل ظلالاً من أكرم الحوراني ومن سواه... وصولاً إلى انقلاب اللواء مأمون ملحم الذي يغدو الجنرال الجديد، ويعجز وضباطه عن امتلاك فيضة، كما عجز الجنرال عبود والباشا الرئيس من قبل.

في هذه المعمعة لا تتي الرواية تمتح من تاريخ سورية الحديث، ولماماً من التاريخ العربي الحديث، لتركب الأحداث والشخصيات الروائية في سعي إلى صياغة تصلح لبلاد العرب. وبقدر ما انطوى هذا السبيل على التعقيد، تبدو لعبته ساذجة، ويجبها السؤال عن مصداقية الصياغة المعمعة. ولم يجد الرواية إزاء ذلك أن تتوع في أسماء شخصياتها (بدير - عبد الحليم غزال - مرعي - بندر - بابكر - بنعامر...) لتخاطب ذاكرة القراء في شتى الأقطار العربية، وهذا ما بلغ مداه في استدعاء طاهر العطا ونذير النميري لجعفر النميري وهاشم العطا من السودان. إن اسم الشخصية هو بحق أمير الدوال، ولكن ليس بهذه الساذجة التي تتسحب على اسم فيضة وفيضي أيضاً.

وقد يكون فيما خصت به الرواية فلسطين واليهود واسرائيل المثال الأنصع لتعقيد وساذجة سبيل الرواية في التأرخة والأسطرة ومجانية الصياغة المعمعة، فلنقرأ: "بين ثغر المخاة وآخر محطة للقطار الواغل في الجبل، نشأ نسل جديد أباه أوروبيون وأمهاته نيلوتيات. وقد تمرس إذ بلغ سن الرشد بالاحتقار لأمهاته البرونزيات المتخلفات، والحدق على آبائه البيض المتعجرفين. إلى هؤلاء انضم بيض أوروبيون شاءوا الاحتفاظ بنقاء دمهم والتخلي عن عنجهيته إزاء النسل الجديد. تألف الاثنان في مجتمع مدور من أثرياء الاستعمار الاستيطاني. وكان للجميع، دون استثناء، أذان بالغة الحساسية إزاء جيرانهم المحيطين بهم إحاطة السوار بالمعصم. إن دعوة السنجاري (ومحجوب في بيت رع، وبنعامر في سوباد، ودهقان في باب إيل، وشيبوب في نيلوتيا الشمالية) إلى الوحدة النيلوتية والاشتراكية لم تكن أول شيء أخافهم في هذا البحر المتلاطم من الهمج وأنصاف الهمج. لكن احتمال وصول هؤلاء إلى السلطة بواسطة النظام البرلماني، واحتمال تحالفهم بعدئذ مع السوفييت، كانا غابة من المخاوف الرهيبة (...). نسيء أكبر من الشتيمة كان يجب أن يحدث لحفظ كيانهم البشري والاقتصادي، مما لم